

أدب التصلية، معايير البلاغة ومبادئ التجنيس

The literature of the prayer: rhetoric criteria and genrization principles

نورة عقاق *

مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو — الجزائر

Agagnoura4@gmail.com

تاريخ النشر:

2025-06-03

تاريخ القبول:

2025-03-10

تاريخ الإرسال:

2023-08-02

ملخص: شكّل "أدب الصلاة على النبي" صلى الله عليه وسلم، باكتناز مادته وتنوع أشكاله، ظاهرة أدبية، لكنّه لم يدرج كشكل تعبيرى أدبي، سواء في الدراسات النقدية القديمة أو الحديثة، ولعل هذا من بين الأسباب التي تستوقف الباحث، وتفتح أمامه سبل التساؤل عن بنية هذا الشكل وانتظامه، وهو الموضوع الذي نحاول كشف خباياه في هذا البحث.

نتطرق في هذا المقال إلى بيان بعض المظاهر الأدبية في نصوص التصلية، التي ترجع أساسا إلى الشحنة العاطفية التي تعد ركيزة من ركائز الخطاب الصوفي؛ وبالتالي إمكانية تصنيف الصلاة على النبي كشكل أدبي تفرد به المتصوفة في منظوماتهم الفكرية والتعبيرية، المتنامية بمعزل عن الأشكال التعبيرية المعروفة في التراث العربي القديم.

كلمات مفتاحية: أدب التصلية؛ الأنواع الأدبية؛ البنية؛ الخطاب الصوفي.

Abstract: "The prayer on the prophet", with its rich content and various forms, makes a literary phenomenon. Nevertheless, it is not considered a literary expressive form in the ancient and modern studies. This draws our attention and paves the way for questioning the structure and organization of this form in this paper to find out more.

In this line, the paper tackles some literary aspects in the prayer texts that basically refer to the emotional load that is one of the Sufi discourse pillars. Besides, we examine the possibility of classifying the prayer on the prophet as a literary form

* المؤلف المرسل

used by the Sufis in their expressive and intellectual system that grows far from the known expressive forms in the ancient Arab heritage .

Keywords: the Sufi discourse; structur; The literature of the prayerrhetori; literary genres.

1-مقدمة: في خضم الزحام الذي تعيشه الساحة الفكرية والأدبية العربية من دراسات وترجمات، وانكباب على المناهج الغربية دراسة وتطبيقاً، وجب على الناقد العربي أن يقف وقفة عاقل متأمل لتراثه، ومنبع أصالته؛ وقفة تتعدى التطبيق الحرفي للمناهج الغربية المعاصرة، والتركيز في ذلك على النتائج، إلى تأمل وقراءة عميقين منبعهما هذا التراث في ذاته، وهدفهما تعميق فهمنا به، وربطه بمختلف الأنساق الثقافية التي ولّدت ونستكشف من خلالها مختلف النصوص المُغَيَّبة، المدونة منها والمخطوطة.

إنّ الانطلاق من النص العربي شعره ونثره، والبحث عن خصوصيته -في رأينا- لا يعني التجرد التام من معطيات الدرس الغربي، بل يمكن للباحث الاستفادة منه، على أن يضع نصب عينيه إبراز خصائص النص العربي، وألا يجعل منه وسيلة للتأكيد على نجاعة المناهج الغربية، كما هو شائع في الساحة النقدية الحديثة، وخاصة في الدراسات التي استفادت من مناهج تحليل السرد، والتي انتعشت بشكل ملحوظ في الآونة الأخيرة.

لكن هذا التطور في مجال السرديات العربية، لا يمثل سوى صورة أخرى من صور التأثير العربي بالدراسات الغربية، ولعل هذا ما يعكس النقص الفادح في مساعلة النثر العربي بشكل عام، وخاصة تلك الأشكال التعبيرية والتشكلات الكلامية التي لم تعترف بها البلاغة القديمة، ولم تدرج ضمن ضروب الكلام العربي لاعتبارات خارج نصية؛ إمّا دينية أو اجتماعية أو سياسية، وغيرها من المجالات التي كانت فاعلة في الساحة النقدية العربية القديمة، كما هي الحال فيما يخص أدب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، الذي شكّل بغناه واكتناز مادته ظاهرة كلامية تستوقف الباحث،

لكنه لم يدرج كشكل تعبيرى أدبي، سواء في الدراسات القديمة أو الحديثة، وهو الموضوع الذي نحاول قراءته قراءة نقدية ضمن نظرية الأنواع الأدبية، فأين تتجلى مظاهر الأدبية في نصوص التصلية؟ وهل يمكن تصنيف الصلاة على النبي كنوع أدبي؟ وأين موقع هذا الشكل في نظرية الأجناس التراثية؟

نحاول في هذه الدراسة الإجابة عن هذه الإشكاليات بتحليلنا لمجموعة من نصوص التصلية، ومحاولة تفكيكها للوقوف على بنيتها الثابتة التي تجعل منها شكلا تعبيريا مستقلا بذاته.

2- أدب التصلية المفهوم والمقومات

1.2 مفهوم أدب التصلية: يعد أدب التصلية فرعا من فروع الذكر الصوفي والمقصد الثاني من مقاصده، ويرجع الباحث زكي مبارك كثرة الكتابات التي اتخذت من الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم موضوعا لها إلى ما يسمى عند المتصوفة بـ "الحقيقة المحمدية" التي تجعل من الرسول إنسانا كاملا يعلو مقامه مقام الأنبياء والرسول والخلق أجمعين.

وقد برز هذا الشكل بارتكازه على ما يسمى بالمدائح النبوية المعروفة منذ بداية الإسلام، ويعد هذا الخطاب الذي رافق النبي صلى الله عليه وسلم ونصره في مواجهة المشركين، «البذرة الأولى لفن المدائح النبوية، إذ قدر له بعد قرون أن يستقل بذاته ويصبح من أكثر موضوعات الشعر حظا من القبول والشيوع»¹، وقد اشتهرت القصائد المدحية في تجمعات الصوفية وإنشادهم، فلا يخلو ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم من مدح مهما كان نوع النص أو موضوعه.

أدب الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، «ذو بعدين متفاعلين متداخلين، أولهما مدحي والثاني توسلي معناه أن الصلاة مدح للرسول وتوسل بها إلى

الله تعالى»². ويعتمد التوسل على المدح، ولا يخلو المدح من التصلية حتى لو غاب بلفظه، فحضوره الضمني في معاني الصلاة لا يمكن تجاهله، كما لا تخفى أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم الظاهرة والباطنة وفضله المعلوم عند أهل الظاهر والباطن؛ إذ الصلاة ليست سوى ذكر للفضائل والشمائل والمعجزات والدلائل.³

وقد كثر التأليف في هذا الشكل خاصة عند المتصوفة السالكين الذين اشتهروا بمذاهبهم الصوفية، أو كان لهم طرقا ينتمي إليها الطلبة والمريدون، وأشهر ما كتب في أدب الصلاة على الرسول، كتاب "ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج" لمحمد بن صالح الشرقاوي، وكتاب "فتح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب" للمختار بن أحمد الكنتي، وغيرها من المؤلفات التي تزخر بها مكتبة الأدب الصوفي.⁴

2.2 الإشارات التصنيفية: إنّ ما يميّز أدب التصلية هو اتخاذه من الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم نقطة يتنامى من خلالها الخطاب؛ إذ تختلف عن المخاطبات الأخرى، كونها تعتمد لازمة "اللهم صل وسلم على سيدنا محمد" تتكرر مع تنوع في ترتيب الوحدات البنائية، فبعد عبارة التصلية نجد بنية لغوية وظيفتها مدح للرسول صلى الله عليه وسلم، كما في هذين النصين:

1. «اللهم صل على النور اللامع والقمر الساطع والبدر الطالع والفيض الهامع والمدد الواسع والحبيب الشافع والنبي الشارح والرسول الصادع والمأمور الطالع...»⁵.
2. «اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد إمام أوليائك المقربين، الموقنين وصفوة وقدوة أصفياك المخلصين، أتقيائك المحبين المحبوبين، الذي لما أتاه جبريل بالبراق المستخرج من حضائر الجنان وأعلى عليين المعد لركوبه في أزل الأزل وسابق التعيين...»⁶.

نجد في مقدمات المؤلفات المتخصصة في الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم إشارات تصنيفية تذكر المنهج المتبع في التأليف؛ إذ يبين الكاتب العنصر الثابت فيها وهو فعل التصلية (اللهم صل وسلم على سيدنا محمد)، والمتغير وهو ما يدعم هذا القول من معاني وعبارات تمثل خصوصية النص واختلافه من صوفي لآخر، ومن طريقة لأخرى، يقول في ذلك النبهاني: «جعلت هذا الكتاب من أربعة أقسام بعنوان الأوراد، حسنة الترتيب والتقدير ومقارنة المقادير... أولها يشمل ما ورد في الثناء عليه في أسمائه النبوية والآيات القرآنية، وما ورد في ذلك من إشارات في الكتب السماوية وفوائده صلى الله عليه وسلم الواردة في الأحاديث النبوية وشماله المروية عن أصحابه الأفاضل، وما وقع له من معجزات ودلائل. والقسم الثاني فيما ورد من الثناء الجميل في صلوات العارفين». فحاول الكاتب بذلك التنويع بين أقسام الكتاب، فحرص على إكمال ألف صلاة على النبي في كل قسم، عملاً بالحديث النبوي الذي يقول فيه: «من صلى عليّ في اليوم ألف مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة»⁷، وتنويعاً لمعاني الحسن والجمال وصوره في الصلاة، فجعل لكل قسم موضوعاً يستقي منه صلواته.

2. 3 تعدد الذات المخاطبة: يتعدى خطاب التصلية ثنائية (المرسل _ المرسل إليه)، إلى علاقة ثلاثية، يتجه فيها الخطاب اتجاهاً تصاعدياً، من العبد الذي يمثل مخاطباً مشمولاً بصفات دنيوية تتوق نفسه إلى الرفعة من خلال رسم استراتيجية خطابية، تهدف إلى اللحاق بذات أخرى، فتتعمد الإتيان فيها بجميل اللفظ، وبلغ العبارة، للذين يؤدیان المعنى المطلوب وهو زيادة تعظيمه صلى الله عليه وسلم وتوقيره.

أما الذات الثانية فهي الذات المحمدية، وأحياناً يلحق بها آل البيت، اقتداءً بالصلاة الإبراهيمية، وما لهذه الذات من خصوصية عند المتصوفة، فالرسول صلى الله عليه وسلم دائماً يُنعت في نصوص التصلية بمصطلحات صوفية تشير إلى هذه

المكانة (المنبع القبة، سيد الخلق، أصل الوجود)، وغيرها من الصفات التي غالبا ما ترتكز على: «تشكيل مُعادِل لعاطفة الحب المحمدي عند الصوفية، ولمقام الرسول في نفوسهم»⁸، فهو طريق الوصول إلى الحضرة الإلهية، والنور الذي تهتدي به البشرية، ولا شك أنّ هذه العلاقة الخاصة بين الصوفي والرسول صلى الله عليه وسلم، هي الدافع لكل هذه الكتابات الكثيرة والمتنوعة في أدب التصلية. يقول ابن سبعين في هذا السياق: «فاعلم أنت وأهل الدرجات أنّ نور السماوات والأرض هو الرسول صلى الله عليه وسلم»⁹، مفسرا الآية القرآنية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فعَدَّ للنبي ثلاثة وثلاثين نورا مستشهدا في ذلك بآيات وأحاديث وتفسير لكبار الصوفية؛ كابن عربي والجيلي وغيرهما. ويفسر هذه الآية بقوله: «اعلم أنّ الحق سبحانه وتعالى اقتطع قطعة من النور الإلهي في غاية الصفاء والجوهر، ثم أبطن في تلك القطعة ما شاء أن يقسمه لخلق من العلم بصفات الله تعالى وأسمائه وكمالات الألوهية، وبأحوال الكون وأسراره ومنافعه ومضاره، وبالأحكام الإلهية أمرا ونهيا، وجعل تلك القطعة من النور مقر الانتصاب لكل ما قسم لخلق في سابق علمه من الرحمة الإلهية، ثم صار يفيض على خلقه ما أقره في الحقيقة المحمدية، فلا يصل شيء من الرحمة إلى الوجود إلّا من ذاته صلى الله عليه وسلم»¹⁰.

أما الذات الثالثة فهي **الذات الإلهية** التي تمثل المرسل إليه ومتلقي هذا الخطاب، مع وعي المتصوفة بالتفاوت الحاصل بين هذه الذوات، وتبادل الأدوار بين المخاطبين فيدعو الولي الله أن يصلي على الرسول صلى الله عليه وسلم، ويرزق كل من صلّى عليه الشفاعة والأجر، ويسرد الولي فضل الصلاة على النبي دون غيرها من الأذكار، فإنه صلى الله عليه وسلم الوسيلة بيننا وبينه تعالى، والدليل لنا عليه

والمعرف لنا به ليكون القصد من وراء الخطاب هو الوصول إلى الله، والتقرب منه بأحب الخلق إليه، وبالتالي تظل الذات الإلهية دائما القصد في خطاب التصليية.

3-بلاغة التصليية: يتسع مفهوم البلاغة في التراث العربي ليشمل كل ما يحقق الإمتاع، من خلال اختيار أحسن الألفاظ وأجلّ المعاني، وخلو الكلام من العيوب؛ يقول في ذلك التوحيدي: «فأما البلاغة فإنها زائدة على الإفهام الجيد بالوزن والبناء والسجع والتقفية، والحلية الرائعة، وتخيّر اللفظ»¹¹، وإن كان تحزّي الفصاحة والبلاغة عادة العرب، عند التعامل بينهم في مخاطباتهم، فما بالك بمخاطبة ذاتين كلتيهما أعلى مقاما من الذات البشرية وهما الذات المحمدية المقصودة بالمدح، والذات الإلهية المقصودة بالقرب والطاعة.

تترصع نصوص التصليية بكثير من عناصر البلاغة؛ كالمحسنات البديعية التي تعطي اللفظ جمالا، والصور البيانية التي تقرب المعاني وترسمها بهيئة جليلة ومسحة من التخيل، يتحرى المصلي من خلالها تجسيدها في صور فنية فريدة؛ كقول الكنتي: «اللهم صلّ عليه ما حارت العيون بالنظر، وترخفت الأرض بالمطر، وحجّ حاج واعتمر، ولبّى وحلّق ونحر، وطاف بالبيت العتيق وقبّل الحجر»¹²؛ فيرسم من خلال تكرار الصور الفنية، تكررا لفعل التصليية، مما يدخل هذا الشكل التعبيري ضمن الكلام البليغ الذي اعتدّ به النقاد القدامى، وجعلوه شرطا من شروط قبول الكلام.

تتسم الصلاة بكونها مخاطبة تزخر بمظاهر التشخيص والتصوير، باعتمادها معجما خاصا يقتبس من اللغة العرفانية الصوفية، من خلال ثنائيات تؤطر سعي الصوفي للوصول، كقولهم «اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد الذي فاز بتصديقه المهتدون، اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد الذي هلك بتكذيبه المعتدون، اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد الذي عممت رسالته فدخل تحت حيطتها الأولون

والآخرون»¹³. فالظاهر والباطن والتحلّي والتخلّي، والنور والظلام والروح والجسد، وغيرها من الأقطاب المتنازعة، تزيد الصوفي اغترابا واضطرابا، يتجلبان كمظهرين من مظاهر الكتابة الإبداعية في الأدب الصوفي.

تحتكم هذه الصور إلى عاطفة قوية، تنفرد بها نصوص المخاطبات الصوفية، من أدعية وأوراد وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فالحب الصوفي يخرج من كونه مجرد عاطفة مثلما تحضر في حياة البشر، أو في المخاطبات الإنسانية والنصوص الإبداعية الأخرى، إلى كونه قطب الرحي الذي تدور حوله ذات الصوفي؛ حيث يشعر «نتيجة لقوة الحب واستغراقه فيه، أنه نهجه ومنهاجه، ودينه وملته، وروحه وكله مسترسلا في تعبيره الموحى بالذويان»¹⁴، ومقياسا تقاس عليه درجة تصوفه، فكلما زاد حبا زاد انقيادا وخضوعا، إلى أن يصل إلى درجات من الفناء يختفي أمامه كل موجود، وبالتالي حريّ بخطاب الصلاة أن يتمخّض مشبعا ومحملا بشحنات عاطفية، تحملّ الخطاب بعمق دلالي نابع عن عمق الحب في حياة الصوفي، وفي ذلك يقول: «واعلم أن من ثمرات الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم انطباع صورته الكريمة في النفس انطبعا ثابتا متأصلا، وذلك أن المداومة على الصلاة على النبي بإخلاص القصد، وتحصيل الشروط، والآداب وتدبر المعنى، تنثمر تمكن حبه من الباطن، تمكنا صادقا متصلا بين نفس الذاكر ونفس النبي صلى الله عليه وسلم، ويؤلف بينهما في محل القرب والصفاء تأليفا بحسب قربه من القلب»¹⁵؛ إذ تشمل لغة الحب الصوفي نصوص التصلية، فيتجلّى في قولهم: «اللهم صلّ على مشروع مشارع الجموع الفردانية ومورد موارد الكمالات الصمانية، وعلى آله وصحبه وسلم. اللهم صل على سيدنا محمد عروس عرائس الجلوات القدسانية، ورئيس مجالس الحضرات الروحانية والنفسانية وعلى آله وصحبه وسلم. اللهم صلّ على سيدنا محمد واسط عقد قلائد النبوات التي هي في خزائن باطنه مخبوءات،

وعلى آله وصحبه وسلم»¹⁶؛ فالصفات التي وردت في هذا النص هي صور تم تأليفها من معجم صوفي، يجعل الذات المحمدية أول الأنوار الإلهية التي خلقت قبل آدم عليه السلام.

تستوقفنا في نصوص التصليّة ظاهرة أخرى هي ظاهرة التكرار، ونقصد بهذا المصطلح تلك السمة البلاغية التي نجدها في الشعر بشكل أوضح، وتختلف عن التكرار الذي يُعدّ عنصراً أساسياً في التكوين الداخلي للأنواع الأدبية، أو ما نسمّيه بالثوابت التي تشكل بنية النوع.

يؤدّي التكرار هنا وظيفة بلاغية من خلال إقرار المعاني وتأكيدّها، فهو أسلوب من أساليب الكتابة الأدبية، له امتدادات في الشعر العربي القديم¹⁷، وأداة فنية ذات أصول شفهية تقتضيها ظاهرة الارتجال. أما علاقة التكرار بالنثر، فتتجلى من خلال توسل النثر بأساليب الشعر، وخاصة في الفترة التي بدأت فيها الكتابة النثرية بمنافسة الشعر.

تشتغل آلية التكرار في نصوص الصلاة على عدّة مستويات: مستوى الدلالة المتعلق بالصفات والشمائل المحمدية؛ إذ يقوم الصوفي في بناء نص الصلاة على أحداث منقولة من السيرة النبوية، كقولهم: «اللهم صل على سيدنا محمد الذي كان ظهوره ممطراً هواطل الرحمت، ومسترضاً حوافل ضروع الخيرات والبركات»؛ ففي فاتحة الصلاة هذه يركز الصوفي على مولد الرسول، ويجعل منه مصدراً للخير الذي يحل على البشرية، وبعدها يبدأ بذكر أمثلة على هذا الخير، ويقول: «اللهم صلّ على سيدنا محمد الذي جعلت قصة الفيل توطئةً لنبوته إذ قرنت بها إظهاره، وأرسلت على أصحاب الفيل طيراً أبابيل ترميهم بحجارة، وعلى آله وصحبه وسلم، الله صلّ على سيدنا محمد الذي شرف به شهر ربيع الأول، ونال الغاية من خيره... اللهم صلّ على سيدنا محمد الذي وافق مولده من الشهور الشمسية نيسان فخدمت له نار فارس

وغيض ماء ساوة وتصدع الإيوان»¹⁸؛ فكل هذه الأحداث التي رافقت مولد الرسول صلى الله عليه وسلم تنصب في حيز البركة والخير التي ذكرها الصوفي في بداية الصلاة.

والمستوى الثاني من مستويات التكرار نجده في البناء اللغوي؛ من خلال تكرار الألفاظ والوحدات البنائية، ويتعداه إلى تكرار في مستوى خارج لغوي، وهو تكرار القراءة من طرف المتلقي المريد أو الصوفي، مما يجلب نوعاً من التأثير على القارئ والمتلقي، فتكرار العبارة في النص الواحد أو في مجموع النصوص لا يحمل الدلالة نفسها؛ إذ تتحلى في كل استعمال بفيض من المعاني التي تضفيها عليها الإشارات الصوفية وفيوضات الحب الإلهي.

وفي هذا الإطار يجب أن نشير إلى ما يسمى بالبلاغة الروحية أو «بلاغة الفكرة أو المعنى في الأدب الصوفي، حيث تعتبر التجربة الروحية أو التقييم الروحي المعيار الأساس في الفصل والحسم»¹⁹؛ مما يميز بلاغة الأدب الصوفي عن بلاغة الخطاب الأدبي غير الصوفي لاختلاف الأنساق الثقافية التي ولدت كلا الخطابين.

4-بنية التصلية وموضوعاتها:

4. 1 الصلاة التيمائية: تختلف موضوعات الصلاة من مؤلف لآخر حتى لدى المؤلف نفسه؛ تعتمد على ذكر محامد الرسول صلى الله عليه وسلم وخصاله، ومنهم من قام بتقسيم هذا النمط إلى المنقول من القرآن الكريم ومن الأحاديث وأقوال الصحابة الكرام، كما في كتاب "صلوات الثناء على سيد الأنبياء"، يقول عن كتابه: «جمع كل لفظ سهل رقيق، ومعنى جزل رشيق، من جوامع الكلم وبدائع المعاني، وبلغ كل مسلم من محاسن أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم كل الآمال والأمانى، جمعت فيه ما ورد في الثناء عليه صلى الله عليه وسلم من الأسماء النبوية والآيات

القرآنية، وبشارات الكتب السماوية، وأحاديث الفضائل والشمائل، والمعجزات والدلائل...»²⁰، إذ قسم التصلية إلى ثلاثة أقسام، الورد الأول في الثناء عليه في أسمائه وما ورد في الآيات القرآنية، يقول في ذلك: «اللهم صل وسلم على من خلقته مختونا مسرورا، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذي شرحت صدره وطهرته تطهيرا، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذي بعثته للمؤمنين نعيما وعلى الكافرين سعيرا، وخاطبته بقولك ﴿إنا أرسلناه بالحق بشيرا ونذيرا﴾»²¹.

يصادفنا في المؤلف نفسه ورد تصلية سماه النبھاني "ورد الثناء على النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب السماوية، والأحاديث المروية"²²، فنجد هذا النمط أكثر انتشارا لتركيزه على المعاني وهو الهدف الأسمى من الصلوات.

2.4 الصلاة شكلية: إذ تقسم تقسيما شكليا لا يأخذ بوحدة الموضوع، ومن أمثلة ذلك الصلاة الهجائية المقسمة حسب حروف الهجاء، فيجعل لكل حرف صلاة تنتهي فواصلها بالحرف نفسه، كما في كتاب الصلوات الألفية في الكمالات المحمدية، يقول النبھاني في باب حرف التاء:

«114 اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد القانت المخبِت.

115 اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد كثير الصمت.

116 اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد دليل الخيرات»²³.

وأحيانا يورد الصوفي في مؤلفات التصلية أورادا يومية تقسم حسب أيام الأسبوع، كما في كتاب "معراج الوصول"، حيث يقول الكاتب: «يشتمل الكتاب على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة، فالمقدمة في ذكر ما يتعلق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من الشروط والآداب المعتبرة عند علماء الآخرة إلى غير ذلك،

والفصول في أيام الأسبوع، لكل يوم لطيفة يختص بها عن غيره بحسب المناسبة التي ظهرت لي، وهي أصل من أصول السلوك عند القوم».²⁴

يمكن أن نضيف إلى ما سبق تقسيماً آخر وضعه صاحب الذخيرة الذي يُعدّ أضخم مؤلف في الصلاة على النبي؛ إذ قسم الصلاة إلى ما سمّاه بالسفر، وهذا نوع من أنواع الكتابة عند المتصوفة، ويقصد به أحوال النفس وسفرها المعنوي في الملكوت، جمع فيها مختلف المواضيع، كقوله: طلب المدد والامداد، سفر الفزع إلى الدائرة المصطفوية، أعداد الصلوات على النبي وإعدادها، وغيرها من المواضيع التي عنون بها الكاتب أسفاره.²⁵

5-التقابل في نصوص التصلية: تعتمد كثير من نصوص المخاطبات على بنية تقابلية تؤدي دوراً أساسياً؛ لكون الظاهرة تتجاوز حدودها الجمالية، بل تُعدّ عنصراً من عناصر بنياتها الداخلية؛ لأنها تتناسب مع «البنية الطلبية ويتفاعل معها ويسهم في إيضاحها من خلال كشفه لأطرافها وأحوالهم وللصراع النصي للمخاطب»²⁶؛ إذ يعمل على المناسبة بين طرفي الخطاب فيقدر عصيان العبد تتسع له المغفرة الإلهية، وعلى قدر شوقه للخالق يقابله الحق بالقرب والمحبة، وعلى قدر تخلي الصوفي عن الدنيا وملذاتها والنفس وشهواتها يرتقي في مراتب التحلي بالصفات الإلهية والقبول منه عزّ وجل، في تآلف وتكامل دلّالين تفرضهما طبيعة التجربة الصوفية التي تتبني على قطبين، يسعى الأول للاتصال بالثاني، على الرغم من نقائصه وعيوبه وطبيعته المختلفة؛ إذ يصبح هذا التناقض الظاهري أساساً في رسم عالم هذه التجربة؛ كقوله: «اللهم صلّ على سيدنا محمد وارفع به عني سحائب الغفلات، وأطفئ بنورك ونوره من قلبي نيران الشهوات وعلى آله وصحبه وسلم، اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد وسفر لبصيرتي براقع التوفيق، حتى أشاهد عرائس نيرات التحقيق وعلى آله وصحبه

وسلم...»²⁷. فلا يمكن إنجاز المطلوب إلا بالتخلي عن نقيضه، ولا يمكن التخلي عن المرفوض، إلا بوجود رغبة شديدة بالتخلي بالمطلوب، فهذه العلاقة المشروطة هي التي تكوّن أسس الخطاب في العلاقة بين العبد وربّه.

6-خاتمة: تطرقت هذه الدراسة إلى شكل تعبير صوفي، شكّل بغناه وتنوعه واكتناز مادته ظاهرة نصية تستوقف القارئ والباحث، وتدفعهما للتساؤل عن وضعية هذه النصوص إزاء البحوث والنظريات والآراء النقدية المعاصرة، فهل يعقل أن تبقى هذه النصوص مهمشة على الرغم من كونها نصوصا إبداعية بامتياز؟ وقد عرضنا بعض العناصر والخصائص التي تصل نصوص التصليّة بدائرة الأدب.

همّش النقد العربي القديم بعض الخطابات، وأخرجها من مجال الأدب، من بينها الخطاب الصوفي، استنادا إلى معايير نقدية استلّت من عناصر خارجية، متعلقة أساسا بالرؤية الدينية والسياسية، أو غيرها من الاعتبارات التي شكلت لبنة أساسية من لبنات الصرح النقدي القديم.

يُعدّ أدب التصليّة جزءا لا يتجزأ من الذكر الصوفي بشكل عام، نواته الأولى المدائح النبوية التي أثّرت بشكل كبير في الشعر العربي، إضافة إلى ذلك مفهوم الحقيقة المحمدية الذي تبناه المتصوفة؛ إذ عمل على تضخيم وجود النبي محمد صلى الله عليه وسلم، انطلاقا من مكانته وفضله، واعتمادا على بعض المصادر القرآنية، حيث جعل المتصوفة من التصليّة ذكرا لا يفارق مجالسهم، ولا تخلو منه مسالكهم.

تتميز التصليات ببنية ثابتة تتكرر في كل نصوصها، مما يجعلها شكلا منفصلا عن باقي الأشكال الخطابية الأخرى؛ إذ تعتمد على لازمة التصليّة (اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد) تنصدر كل صلاة، وتتكرر في كل وحدة، وتكون موضوعا أساسيا

تتبنى عليه معاني الصلاة، أما ما يعقب فعل التصلية فهي الصيغ الخطابية المساعدة والداعمة للموضوع الأساس، فقد تكون صفات نبوية، آيات وأحاديث، أخبار وروايات، رؤى ومنامات، وغيرها مما يدعم به الموضوع الأساس.

أدب التصلية شكل من أشكال المخاطبات الخاصة بالثقافة العربية وبالتصوفة بشكل أدق، خلافا للأشكال الخطابية الأخرى التي تجتمع في البعد الإنساني؛ كالدعاء والمناجاة والرسائل، وبما أن النسق الذي ولّدها مختلف عن الأنساق الأخرى، فإن الخصائص والمقومات الداخلية التي تشكّل هذا النوع الأدبي أيضا مختلفة كما تبين من خلال هذه الدراسة.

7- قائمة المراجع:

1. المؤلفات:

1. ابن سبعين: أنوار النبي، أسرارها وأنواعها، ط1، دار الأفاق العربية، (القاهرة: دار الأفاق العربية، 2007).
2. أبو حيان التوحيدي: المقابسات، تح: علي شلق، ط1، دار المدى للطباعة والنشر، (بيروت: 1987).
3. أحمد بن عبد الحي الحلبي: معارج الوصول بالصلاة على أكرم نبي ورسول، تح: خالد الصقلي، د ط، (المغرب: 2007).
4. حسين الواد: مدخل إلى شعر المتنبي، دار الجنوب للنشر، (تونس: 1991).
5. عبد الهادي بن ضافر الشهري: استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية) ط1، دار الكتاب الجديدة، (لبنان: 2003).

6. عبد الوهاب الفيلاي: الأدب الصوفي في المغرب إبان القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (ظواهر وقضايا) ط1، مطبعة المعارف الجديدة، (الرباط: 2014).

7. محمود علي المكي: المدائح النبوية، ط1، الشركة المصرية العامة للنشر، (مصر: 2011).

8. المختار الكنتي: نفح الطيب في الصلاة على الرسول، دط، دت.

9. ناصف نصار: منطق السلطة (مدخل إلى فلسفة الأمر) ط 2، أمواج للنشر، (لبنان: 2001).

10. يوسف بن إسماعيل النبهاني: صلوات الثناء على سيد الأنبياء، المكتبة الأدبية للنشر، (بيروت، 1317).

11. المقالات:

1. موسى رابعة، التكرار في الشعر الجاهلي دراسة أسلوبية، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الخامس، العدد الأول، 1990.

الهوامش والإحالات.

1- محمود علي المكي: المدائح النبوية، الشركة المصرية العامة للنشر، ط1، 2011، ص6.

2 -عبد الوهاب الفيلاي: الأدب الصوفي في المغرب، ص 71.

3- يراجع: النبهاني: الصلوات الألفية في الكمالات المحمدية، ص9.

4- من أشهر النصوص المتداولة في أدب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم نص الصلاة المشيشية للقطب بن امشيش والتي نصها: «اللهم صلّ على منْ منهْ انشقتِ الأسرارُ، وانفلقتِ الأنوارُ، وفيه ارتقتِ الحقائقُ، وتنزلتْ علومُ آدمَ عليه السلامُ فأعجزَ الخلائقُ، وله تضاعلتِ الفهومُ فلمْ يدركهُ منا سابقٌ ولا لاحقٌ، فرياضُ الملكوتِ بزهرِ جماله

مونقةً، وحياضُ الجبروتِ بفيض أنواره متدفقةً ولا شيء إلا وهو به منوطٌ، إذ لولا الواسطةُ لذهب -كما قيلَ- المتوسطُ، صلاةٌ تليقُ بك منك إليه كما هو أهله. اللهم إنه سيرُك الجامعُ الدالُّ عليك، وحجابك الأعظمُ القائمُ لك بين يديك. اللهم ألحقني بنسبه وحققني بحسبه، وعَرَّفني إياه معرفةً أسلم بها من موارد الجهل، وأكرعُ بها من موارد الفضل، واحملني على سبيله إلى حضرتك حملاً محفوظاً بنصرتك واقذف بي على الباطل فأدمعه، وزج بي في بحر الأودية وانشلني من أحوال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها. واجعل الحجاب الأعظم حياةً روحي، وروحه سرَّ حقيقتي، وحقيقته جامعٌ عوالمي، بتحقيق الحق الأول (يا أولُ يا آخرُ يا ظاهرُ يا باطن) اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكرياء عليه السلام، وانصرتني بك لك وأيدني بك لك، واجمع بيني وبينك وحل بيني وبين غيرك ثلاثاً، الله، الله، الله " (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) "ربنا آتانا من لَدُنكَ رحمةً وهيئ لنا من أمرنا رشداً.

5- النبهاني: سعادة الدارين، ص10

6- ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج، ج3، ص61.
<https://ia803007.us.archive.org/19/items/Dakhirat-almuhtaj/dakira03.pdf>

7- أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم برقم 405.

8- عبد الوهاب الفيلاي، الأدب الصوفي في المغرب إبان القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، ص 230.

9- ابن سبعين، أنوار النبي، أسرارها وأنواعها، ص81.

10- ابن سبعين، أنوار النبي، ص 274.

11- أبو حيان التوحيدي، المقابسات، دار المدى للطباعة والنشر، تح: علي شلق، ط1، بيروت، 1987، ص392.

12- المختار الكنتي، نفح الطيب في الصلاة على الرسول، ص32.

- 13- النبھانی: صلوات الثناء على سيد الأنبياء، ص 82.
- 14- عبد الوهاب الفيحالي، مرجع سابق، ص 223.
- 15- أحمد بن عبد الحي الحلبي، معارج الوصول، ص 10.
- 16- أحمد بن عبد الحي الحلبي، نفسه، ص 33.
- 17- يراجع في ذلك: حسين الواد: مدخل إلى شعر المتنبي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1991، ص 79. يراجع أيضا موسى رابعة: التكرار في الشعر الجاهلي دراسة أسلوبية، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الخامس، العدد الأول، ص 191.
- 18- أحمد بن عبد الحي الحلبي: معارج الوصول بالصلاة على أشرف نبي ورسول، ص 15.
- 19- عبد الوهاب الفيحالي: الأدب الصوفي في المغرب إبان القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، ظواهر وقضايا، ط 1، المعارف الجديدة، المغرب، 2014، ص 122.
- 20- يوسف بن إسماعيل النبھانی: صلوات الثناء على سيد الأنبياء، ص 3.
- 21- المرجع نفسه، ص 61.
- 22- المرجع نفسه، ص 117.
- 23 النبھانی، الصلوات الألفية في الكمالات المحمدية، ص 10.
- 24 أحمد بن عبد الحي الحلبي: معارج الوصول بالصلاة على أكرم نبي ورسول، تحقيق أحمد الصقلي، مطبعة أنفو برانت، فاس المغرب، 2007، ص 2.
- 25 يراجع: محمد المعطي الشرقاوي: ذخيرة المحتاج في الصلاة على صاحب اللواء واللتاج، نسخة رقمية من موقع أرشيف يعد كتاب الذخيرة أضخم مؤلف في أدب التصفية إذ يحوى ستة وخمسون جزء، يسميها كاتب بالسفر، نسبة الى الرحلى الارتقاء الروحية التي يمر بها الصوفي أثناء سلوكه.

<https://archive.org/details/Dakhirat-almuhtaj/dakira01/page/n7/mode/2up>

26- عبد الوهاب الفيلاي، ص 129.

27- أحمد بن عبد الحق الحلبي، ص 37.